

## كيف قتلت الحرب والدتي؟



ترجمة وتحرير نون بوست

تجلس المرأة العجوز على سريرها بجوار النافذة، ورغم أنها لا تستطيع رؤيتها، إلا أن شمس ووطنها الدافئة تغمرها بالضوء، تضع رأسها بين يديها، وتفكر بصوت عالٍ كيف قضت حياتها كلها وهي تحاول الهروب من قنابل "إسرائيل"، في الخلفية، تسمح نفس النافذة التي يدخل منها الضوء بدخول أزيز الطائرات الحربية والطائرات المسييرة بشكل مستمر، يتخالله التفجيرات والقصف المدفعي، ورغم أنها لا تستطيع رؤيتهم، إلا أنها تسمع كل دوي، وتشعر بالأرض في كل مرة تهتز.

تلك المرأة العجوز عند النافذة كانت والدتي.

على مدى السنوات الخمس الماضية، كنت من يعتني بها بشكل أساسي؛ حيث كانت تعاني من العمى ومجموعة من الحالات الطبية الأخرى، بما في ذلك أمراض القلب وكسر في الورك، وقد قضيت كل ليلة تقريبًا طوال السنوات الخمس الماضية مستلقيًا مستيقظًا في الليل، قلقًا من أنها قد تحتاجني.

كانت دائمًا تقول "سامحني" من منطلق الشعور بالذنب، لكنني كنت أرد عليها دائمًا بأن أقول لها إنها كنزي، وأنها السبب في كل شيء مبارك وجيد في حياتي.

لقد تم تهجيرنا أنا وعائلتي خمس مرات حتى الآن خلال الحرب المستمرة ضد الوجود الفلسطيني في غزة، ونحن عائلة مكونة من ثمانية أشقاء، وأنا أصغرهم، الجميع متزوجون، وبعض بنات وأبناء إخوتي أكبر مني سنًا.

كنا جميعًا نعيش في نفس المبنى في منزلنا في الشجاعة بمدينة غزة، كنا 23 شخصًا في ذلك المبنى، و22 آخرون يعيشون في نفس الحي، فرقتنا الحرب جميعًا في تشرين الأو/أكتوبر. وبحلول تشرين

الثاني/نوفمبر، كان المبنى بأكمله قد دُمر، وطوال كل ذلك ظلت أُمي المسنة معي، قريبة من ذراعي، كما فعلت طوال حياتي.

وكان نزوحنا الرابع إلى رفح؛ حيث بقينا إلى جانب 1.7 مليون فلسطيني آخرين، وصلنا أنا وأمي وابني قيس البالغ من العمر سنة واحدة وزوجتي تيماء إلى منزل مهجور في رفح مع عائلة والد زوجتي المكونة من أربعة أفراد، أما بقية أفراد عائلتي الممتدة، إخوتي وبنات إخوتي وأبناء إخوتي - كل من اعتاد رؤية والدتي كل يوم طوال حياتنا - فقد كانوا منتشرين في جميع أنحاء غزة.

وفي شباط/فبراير، بعد شهرين من وصولنا إلى رفح، مرضت والدتي، وبضربة حظ وإصرار، تمكنت من عرضها على طبيب وسط القصف والغزو البري والمستشفيات المكتظة، ووصف لها الطبيب أدوية لم اجدتها في رفح كلها، وبينما كنت أنتقل بها بين المستشفيات والمراكز الطبية، التي لم يكن أي منها مجرّأ لاستقبالها كمريضة، استمرت حالتها في التدهور، أعطوني بعض الأدوية المتوفرة، لكن لم يكن هناك أي نتيجة، وفي نهاية المطاف، توقفت عن النوم ليلا، ثم لم تعد قادرة على المشي بنفسها.

اتصلت بأخي أسامة طلباً للمساعدة، وجاء من خان يونس على الفور.

أخذناها إلى المستشفى الأوروبي، الواقع على حدود خان يونس ورفح، وكان أقرب مستشفى والمستشفى الرئيسي الوحيد الذي يعمل في الجنوب، وعندما فحصها الأطباء أمروا بإدخالها إلى المستشفى.

وفي وضع فريد من نوعه في غزة، ولا يمكن لأي شخص آخر أن يتخيله، وبسبب حالتها الصحية المتدهورة ودخولها إلى المستشفى الأوروبي، تمكنت أخيراً من لم شملها مع أبناء وبنات إخوتي - أحفادها - الذين لم ترهم منذ أشهر بسبب وجودنا في رفح بينما كانوا يحتمون في أرض المستشفى. عندما وصلت إلى المستشفى، رأتها عائلتي للمرة الأولى منذ اندلاع الحرب، وركضوا إليها واحتضنوها. وقد كانت لحظة سعيدة رغم الظروف، ولم تكن تعلم حينها أن أخي الأكبر قد أصيب بعد قصف المنزل الذي كانوا فيه، وظل هو وعائلته عالقين تحت الأنقاض ليلة كاملة قبل أن يتم إنقاذهم، ولم تكن تعلم أن شقيقها، خالي، قد قتل، أو أن منزل عائلتنا قد دُمر، هذه هي الأشياء التي كان علي أن أخفيها عنها خوفاً مما قد تفعله الأخبار بها، لعدة أشهر، اعتقدت أن كل مخاوفها، وكل اللحظات المرعبة التي عاشتها، والنزوح، والرعب المستمر من القنابل، كل ذلك سيكون أكثر من اللازم لقلبها المتعب. وفي ذلك اليوم في المستشفى الأوروبي، أعتقد أنني كنت على حق؛ فعندما أخبرها أحدهم بإصابة أخي، كان حزنها لا يطاق.

وبحلول نهاية ذلك اليوم في المستشفى، كان علي أن أتخذ خياراً مستحيلاً؛ إما البقاء في المستشفى وترك زوجتي وابني في رفح، أو الانضمام إليهم مرة أخرى والتخلي عن والدتي في خان يونس، وحاولت أن أحقق التوازن وتركت والدتي مع أخي أسامة، وفي كل صباح طوال الأسابيع القليلة التالية، كنت أترك عائلتي في رفح في الصباح، وقبل المساء، كنت أترك عائلتي الأخرى في المستشفى في خان يونس وأعود إلى عائلتي في رفح.

لقد عشت هذا العذاب لمدة شهر، وفي كل مرة أودع ابني وكأنها المرة الأخيرة، وفي كل ليلة كنت أعيش نفس العذاب عندما أودع أُمي، هل سأنجو من الليل وأراها مرة أخرى غداً؟

ومع مرور الأيام، لم يعد المستشفى مستشفى، وقد امتلأ بالعائلات النازحة التي استولت على جميع غرف وأسرة المرضى غير المأهولة، وحتى الممرات كانت مليئة بالناس، ينامون على البطانيات وكل ما يمكنهم العثور عليه، لم تكن بيئة صحية لأي شخص، ناهيك عن المرضى. كانت الأرضيات قذرة، والأطفال الذين

أمضوا شهرًا في ممرات المستشفى دون أي شيء يلعبون به، أصبحوا يصنعون ألعابًا من النفايات الطبية ويركضون حفاة في المستشفى وأراضيه، ولم تكن والدتي ترى أيًا من هذه الأشياء، لكنها كانت تسمع الضجة، وصوت القنابل المتساقطة من بعيد، وضجيج الحشود وصرخات وصراخ المصابين من حولها.

وتمكن مجموعة من الأطباء من إعطائها الحد الأدنى من الأدوية، وبدأت أشعر أنه كان من الخطأ نقلها إلى المستشفى، ولكن مرة أخرى، كنت أخشى أن أندم أكثر إذا ماتت في المنزل، عاجزة وبدون رعاية طبية، قلت لنفسي إنها بحاجة إلى الرعاية. هذا هو الخيار الوحيد الذي لدينا.

وبعد ثلاثة أسابيع، بدأت كليتيها بالفشل، وقال لي الأطباء إنهم سيبدلون قصارى جهدهم لتجنب الوصول إلى مرحلة الحاجة إلى غسيل الكلى "لأنه لا توجد فرصة لتكون قادرة على التعامل مع غسيل الكلى"، كما أخبرني أحد الأطباء. كان جسدها أضعف من أن يتحمل هذه العملية، وكان هذا هو نفس السبب الذي أعطانا إياه الطبيب منذ سنوات عديدة عندما طلبنا العلاج لمحاولة إنقاذ بصرها.

في اليومين الأولين بعد أن وصفوا لها أدوية لكليتيها، لم تتحسن حالتها، لكنها لم تسؤ أيضًا، وبدأت أدرك أنها لم تعد قادرة على البقاء هنا بعد الآن، لقد فكرت في صحتها النفسية أولاً والأثر الذي كان يلحقه بصحتها الجسدية، وقلت لها عشرات المرات إن علينا العودة إلى رفح، إلى المنزل الذي كانت فيه عائلتنا، لكنها رفضت.

وقالت لي عندما أصرت على عودتنا إلى رفح: "طالما أنهم يعالجونني، سأبقى، قد أحسن وأتمكن من المشي مرة أخرى، أنا مريضة ومنتعبة للغاية، لن أسامحك إذا أخرجتني دون إنهاء علاجي" وهكذا بقيت هناك.

وواصلت التنقل ذهابًا وإيابًا بين المستشفى الأوروبي وعائلي في رفح، ولم أضع في الاعتبار أن الجيش كان يقصف طريق صلاح الدين ويتعدى ببطء على خان يونس.

كانت والدتي، التي لم أستطع أن أتركها، ولو ليوم واحد، هي الشخص الوحيد الذي يحبني أكثر من نفسها، نحن في الإسلام نؤمن بأن أمهاتنا مفاتيح الجنة، وأن الجنة تحت أقدامهن، أنا أعلم أن هذا صحيح، لقد كانت أمي مفتاح استجابة دعائي، والبوابة التي بيني وبين الله، لقد كانت وستظل دائمًا السبب وراء حصولي على الحظ السعيد في حياتي.

وعلى الرغم من أنها أمي، إلا أنني أشعر أحيانًا بأنها ابنتي الصغيرة، كنت أعلم أنها أصبحت أكبر سنًا وأكثر مرضًا، ولذلك أردت أن أمنحها أفضل اللحظات التي أستطيعها، حتى في هذه الحرب الرهيبة.

لذلك لم أضيع أي فرصة لرؤيتها، إلا يومًا واحدًا، وقد كان يومًا مروعًا عندما اضطررت للوقوف في طوابير لساعات للوصول إلى ماكينة الصراف الآلي في رفح؛ حيث لم يكن هناك سوى ثلاثة أجهزة صراف آلي ولا توجد أموال نقدية لـ 1.7 مليون شخص.

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي لم أر فيها والدتي، ليس فقط خلال الشهر الذي قضته في المستشفى، وليس فقط أثناء الحرب، ولكن طوال حياتي في غزة، لقد اشتقت لها في ذلك اليوم.

وفي اليوم التالي دخلت في غيبوبة.

وإلى جانب مشاكل الكلى التي تعاني منها، عانت من سكتة دماغية هي الثانية خلال سنوات قليلة، وكانت بحاجة إلى أن يتم إعطائها تغذية خاصة من خلال أنبوب تغذية لا يتوفر في

المستشفى، وكتب الطبيب وصفة المكمل - إنشور بلس - وطلب مني الخروج والعثور عليه، وتمنيت ألا يتركني بحثي في صيدليات رفح خالي الوفاض، ولكن خاب أمني.

وعندما أصبح الأمر ميؤوسًا منه، عدت إلى الطبيب وأنا أشعر بالإحباط وسألته كيف لا يتمكن مستشفى بهذا الحجم من تأمين التغذية لمرضاه وكيف يتوقع مني العثور عليها، لقد فهم الطبيب غضبي، كان يعرف ما كنت أخسره، وكان يعلم أنه لا ينبغي أن يكون الأمر بهذه الطريقة.

يوما بعد يوم، ومع عدم وجود طعام أو علاج مناسب، توقف جسدها عن الاستجابة للأدوية، وبدأ الأطباء يقولون إنه لا يوجد شيء يمكنهم فعله. أمضت 10 أيام في غيبوبة، تتنفس، تفتح عينيها، وأحيانًا لا تستجيب لأي شيء. لكن رغم أنها لم تستجيب، إلا أن جسدها كان يهتز في كل ثانية مع صوت كل قنبلة، وكل صرخة من كل شخص في المستشفى، ومرة أخرى، كان الخوف الذي وضعها هنا لا يزال يؤثر سلبيًا.

وبدأت أودعها لها لمدة 10 أيام، كل يوم كنت أستغل كل لحظة لإبقائها بين ذراعي، أردت أن أشعر بوجهها الدافئ بجانبى قبل أن يبرد، كنت أخزن ابتسامتها في ذهني وإحساس شعرها الرمادي بين أطراف أصابعي، شعرت أن كل يوم في حياتي يمر أمامي، وأنا أمسك بيديها طوال اليوم وأستلقي بجوارها في سريرها في المستشفى.

أعلم أن الموت قادم لنا جميعًا، لا نعرف كيف ولا متى، لكن في بعض الأحيان يمكننا رؤية العلامات، لقد شهدت وفاة والدي منذ عامين، اعتقدت بعد ذلك أنني سأقضي المزيد من الوقت مع أمي، لكن كل يوم في ذلك المستشفى أصبح أكثر تدميرًا مع مرور الوقت، وعندما بدأت أفقد الأمل في أنها ستعيش، بدأت أتمنى على الأقل أن أتمكن من دفنها بجوار والدي في المقبرة في غزة، لكنني كنت أعلم أن هذا كان أقل احتمالًا من تعافيتها الكامل.

أمي، أمي الحبيبة الجميلة، التي تجعلني أومن أن الخير سيعود لي دائمًا بأشكال مختلفة وأكثر سخاءً، تمنيت ألا تموت أبدًا، لكن الأمنيات نادرًا ما تتحقق هذه الأيام في غزة.

في الساعة الثانية من صباح يوم 4 آذار/مارس، اتصل بي ابن أخي من خان يونس، كنت نائمًا في رفح. وقال: "تعازي"، سألت: في من؟ أخبرني أنها توفيت، لم أستطع أن أصدق ذلك، كيف يمكن أن تموت دون أن أمسك بيدها؟

"كيف؟" لقد طلبت من ابن أخي، كنت أحاول أن أخبره أنني كنت هناك طوال اليوم، ظللت أسأله: "أنت لست جادًا، أليس كذلك؟"

ثم اتصل بي أخي أسامة، وأكد وفاتها وحاول جاهدًا أن يجعلني أصدق أنها في مكان أفضل.

يا أمي، لقد بذلت قصارى جهدي. لقد حاولت جاهدًا إخراجك من غزة، أو نقلك إلى أي مستشفى في مصر، لكنني لم أستطع، حاولت أن أعطيك الدواء والمكملات الغذائية التي تحتاجينها، لكنني لم أتمكن من ذلك. يا أمي، حتى الموت في قبر كريم أمر مستحيل، فالمقابر ممتلئة، والناس يدفنون أحبائهم الآن في مقابر مؤقتة بالقرب من المستشفى، ويقوم بعض الأشخاص بدفن أحبائهم في الوسط بين الطريق السريع، أو على جانب الطريق، هل سيكون ذلك نحن؟ هل سأضطر إلى وضعك داخل كيس من البلاستيك ودفنك تحت الأرض على جانب الطريق في قبر مؤقت مبني من الحجارة ومغطى بالإسمنت؟ عذبتني أفكارى بقية الليل.

كان جميع من حولي نائمين، إنها الثالثة صباحًا، ولا أستطيع الانتقال من رفح إلى خان يونس، فالطرق ليست آمنة. لن أجد من يقودني، فالطريق بعيد جدًا وخطير.

عندما بدأت الشمس تتسلل ببطء عبر النافذة، بدأ واقع فقدان والدتي يستقر. استلقيت ببطء على مرتبتي، وغطيت رأسي ببطانيتي، ولم أستطع حبس دموعي أكثر من ذلك، كل لحظة في حياتي مع أمي

بدأت تملأ ذهني.

أتذكر مدى صعوبة عمل والدتي طوال حياتها من أجل الحصول على عائلتها الكبيرة ومنحنا حياة جيدة، أتذكر كل لحظة في طفولتي عندما كنت أستلقي بجانب رأسها على وسادتها وتحتضن كل جزء من جسدي، أتذكر تلك السنة التي بذلت فيه قصارى جهدي لتعليمها كيفية كتابة اسمها، لم تتح لها الفرصة لتلقي التعليم، لكنها علمتني كيف أكون إنسانًا، علمتني كيف أرحم في قلبي وكيف أسامح. وعلمتني كيف أكون ابنًا صالحًا.

في الأسبوع الأخير من حياتها، عندما لم تكن تستجيب لأي شيء من حولها، كنت أتحدث معها كالمعتاد، وقلت لها: "إذا كنت تستمعين، من فضلك فقط حركي إصبعك"، وقد فعلت.

لذلك أخبرتها بكل ما أردت أن تعرفه، أخبرتها أنني أصلي من أجل أن تنجو، حتى لو كان ذلك يعني أن أقضي حياتي كلها في خدمتها والاعتناء بها، أخبرتها كم كنت محظوظًا لكوني ابنها وكم أحببتها، أخبرتها أنني سجلت اسمها في قائمة السفر إلى مصر وأنا ننتظر دورنا.

اليوم أجلس في مصر مع زوجتي وابني، اعتقدت أن أمي ستكون معنا، لم أتخيل أبدًا أنها ستختار وجهة مختلفة.

ارقدي بسلام يا حبيبتي، أنا آسف جدًا لأنني لم أتمكن من إنقاذك.

المصدر: موندويس